جوزيف مَسْعد: تحليلٌ نبيهٌ... وشيءٌ قليلٌ من التزيُّد(*)

فيصل درّاج**

يستأنف جوزيف مَسْعد، في كتابه **ديمومة المسألة الفلسطينيّة**، جهودًا نظريّةً فلسطينيّةً استهلّها روحي الخالدي قبل قرن من الزمن، وتناتجتْ بعده في نصوصٍ مسؤولةٍ مفيدة، أو في أخرى ضعيفةِ الحسبان. يتمتّع كتابُ مَسْعد بفضائلَ ثلاث: ١) الاستقصاء المعرفيّ الذي يسائل مكتبةً واسعةً، قوامُها الرابطةُ الوثيقةُ بين المأساة الفلسطينيّة والمشروع الصهيونيّ؛ ٢) وضوحُ الموقف السياسيّ، الذي ينحّي «الاعتدالَ» و«الواقعيّةَ السياسيّةَ» المزعومَيْن؛ ٣) البرهنةُ عن استمرار نسقٍ من المثقفين الفلسطينيين الذين ينتمون إلى القضيّة، لا إلى «الناطقين باسمها» زورًا وبهتانًا.

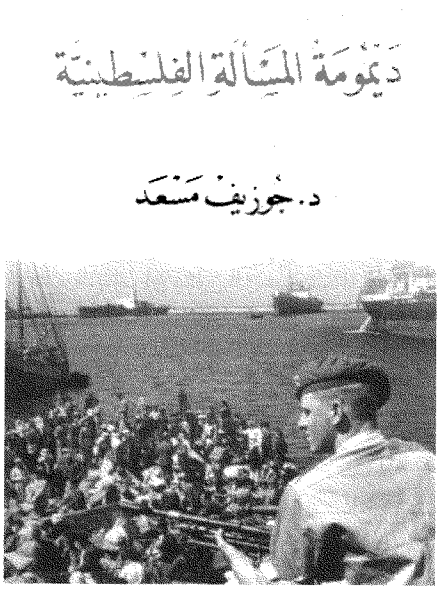

يتوزّع الكتابُ، الموجّهُ إلى جمهورٍ غير عربيّ في الأساس، على حقولٍ ثلاثة. يتمحور الأول حول الخطاب الصهيونيّ في عناصره المتعدّدة، ويتصل الثاني بالخطاب الفلسطينيّ الذي أَعقب اتفاقيّةَ أوسلو، ويمسّ الثالثُ قضايا نظريّةً عالجها الباحثُ وهو يقرأ الخطابين معًا. أَنتج الكتابُ، في عناصره المترابطة، نصّاً نظريّاً جديرًا بالقراءة، بسبب معرفته الواسعة، وسعيه إلى «التجديد النظريّ» في آن. فعلى خلاف كثيرين يطمئنّون إلى كتابةٍ مختصّةٍ ضيّقةٍ تقْصد «التاريخَ» وتكتفي به، أو تذهب إلى «السياسة» وتنغلق فيها، عمل جوزيف مَسْعد على بناء بحثٍ نظريٍّ مركّب، يؤالف بين التاريخ والسياسةِ والفلسفةِ وعلم النفس، ويستفيد ـ قدْرَ ما استطاع ـ من مقولات مابعد الحداثة، التي يرى البعضُ فيها كشفًا نظريّاً خصيبًا ويرى فيها آخرون «كلماتٍ أنيقةً» تحتفي بالهامش و«تشوّه» الأساسَ.

❖ ❖ ❖

سعى المؤلّفُ في الجزء الأول، وعنوانُه «الإيديولوجيا الصهيونيّة والوطنيّة الفلسطينيّة،» إلى تفكيك الخطاب الصهيونيّ، الذي يتوالد متنوّعًا ومتجانسًا، منذ أن كتب موزز هيس **روما والقدس** (١٨٦٢) حتى اليوم. مرّ مَسْعد، وهو يسائل الفكرَ الصهيونيّ في تاريخه الطويل، على مقولاتٍ كثيرة: أرض الميعاد، التاريخ ـ الأصل، اللاساميّة، الرسالة الصهيونيّة الحضاريّة، الرجولة اليهوديّة، المحرقة، الشتات اليهوديّ، اليهوديّ الشرقيّ واليهوديّ الغربيّ، الإرهاب.

لكنّ قيمةَ البحث لا تعود إلى كمّ المقولات المندرجة فيه (فهذا عملٌ مدرسيٌّ قديمٌ وجليل)، بل إلى الكشف عن تناقضات الفكر الصهيونيّ، التي لا تنفصل عن مشروعٍ يريد أن يبدو سويّاً، فيحتكم إلى التاريخ... ويُطْلق عليه النارَ في آن. وفي هذا طَرح مَسْعد، وهو يحاجج الفكرَ الصهيونيّ، جملةً من الأسئلة اللامعة: كيف يمْكن تعريفُ «الإرهاب» إذا كانت القوةُ عنصرًا داخليّاً في السؤال والإجابة عنه؟ وإذا كانت قوةُ الكلام من قوة المتكلّم، فكيف يجابه التعريفُ الفلسطينيُّ للإرهاب التعريفَ الصهيونيّ؟ وهل الإرهابُ موضوعٌ نظريّ قوامُه الحججُ والإقناعُ؛ أمْ أنه واقعٌ مشخَّصٌ قابلٌ للمعاينة، وجوهُه الشعبُ المشرَّدُ والقرى المهدومةُ واستبدالُ تاريخٍ

---

* ـ جوزيف مسعد، **ديمومة المسألة الفلسطينيّة** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٩).

** ـ ناقد فلسطينيّ مقيم بين عمّان ودمشق. يصدر له قريبًا كتابٌ ضخم عن دار الآداب بعنوان: **رواية التقدّم واغتراب المستقبل: تحوّلات الرؤية في الرواية العربيّة**.

ثقافيّ بآخر؟ ما هو نقيضُ الإرهاب ممارسةً، وما هو نقيض الإرهابيّ هويّةً؟ وما هي موضوعيّةُ التصنيف والسؤال والإجابة؟ قد يكون الجوابُ في «الماديّة التاريخيّة،» أو في الشروط الماديّة التي تحتفل بكلمةٍ وتمزّقها، من دون أن تكون في الحالين واضحةَ الجدوى، ما دامت قوّةُ الكلام من قوّة المتكلّم.

ومع أنّ سؤال الإرهاب، الذي يُستهلّ به الكتابُ، يبدو نظريّاً بامتياز، فإنه في حقيقته مأسويٌّ بامتيازٍ أيضًا، لأنّ الإسرائيليين يُطْلقون النارَ على الإجابة الفلسطينيّة قبل أن تقف. ولعلّ هذا المأسويّ ـ النظريّ هو الذي جعل المؤلّفَ يبدأ بذلك السؤال قبل غيره؛ ذلك أنّ فيه ما يَشْرح «ديمومةَ المسألة الفلسطينيّة» التي هي من ديمومة «التفوّق الصهيونيّ.»

إذًا، استهلّ مَسْعد كتابَه بموضوع الإرهاب، منتهيًا إلى «جوابٍ صحيح،» يقرّره «التاريخُ الأقوى» لا مبادئُ الأخلاق. وأنهى كتابَه بموضوع «ديمومة المسألة الفلسطينية،» مستكملاً بدايتَه اعتمادًا على مفهوم القوّة؛ ذلك أنّ ديمومةَ هذه المسألة هي من ديمومة قوة المتكلّم. ومع أنّ هذا المتكلّم يبدو، للوهلة الأولى، يهوديّاً تَصَهْين واستعمر فلسطينَ، فهو في طيّاته المختلفة امتدادٌ لتاريخ أوروبيّ حديث، عَرَف اللاساميّة واستعمارَ الشعوب وإقامةَ الفوارق بين البشر والمزجَ المجتهد بين المصلحة والحقيقة. وبسبب ذلك فإنّه لا يفسِّر الظلمَ الذي وقع على الفلسطينيين بـ «السطح الصهيونيّ،» بل بـ «جوهرٍ غربيّ» لا ينفصل عن الأزمنة الحديثة، وعن «رواسب الوعي» التي سبقتْها. ولذلك يرى مَسْعد أنّ المسألة الفلسطينيّة باقيةٌ ما دام المشروعُ الكولونياليّ الصهيونيّ قائمًا، وأنّ ديمومتَها «مرتبطةٌ عضويّاً بديمومة المسألة اليهوديّة،» و«أنّ ديمومةَ اللاساميّة في الفكر الأوروبيّ الأمريكيّ اليوم ـ إلى جانب كرهها المستمرّ لشخص اليهوديّ ـ هي بالضبط مصدرُ الدعم الأوروبيّ والأمريكيّ لليهود اللاساميين في إسرائيل» (ص ٣٩٦).

هكذا وصل الكاتبُ إلى أطروحتين «قديمتين،» ويتفق معهما بأقساط مختلفة: قال بالأولى ماركس الشابّ في كتابه **المسألة اليهوديّة** حين رأى تحرّرَ اليهوديّ ماثلةً في مجتمعٍ إنسانيّ متحرّرٍ من أنانيّته البرجوازيّة، وقال بالثانية سارتر حين فَسّر ديمومةَ المسألة اليهوديّة بديمومة اللاساميّة. والواضح في كلّ هذا أمران: ١) أنّ الصهيونيّة «بُقْيا» متميّزةٌ من الإيديولوجيا الكولونياليّة الأوروبيّة التي ساوت بين الاستعمار و«الرسالة الحضاريّة»؛ ٢) وأنّ الصهيونيّة شكلٌ من اللاساميّة «تشرقن» وأُزيح من مكانه، لأنّ اليهوديّ الذي حَمل آثارَ لاساميّةٍ بيضاء تحوّل بعد تصهينه إلى أوروبيّ أبيض رأى في العرب الفلسطينيين «يهودًا» من نوعٍ جديد. إنه الشكلُ النموذجيّ لـ «العنصريّة التي تطْرد أخرى،» مؤمنةً بأنها غيرُ عنصريّةٍ على الإطلاق لأنها تقول «الحقيقة.» ولهذا يأخذ «العربيُّ القذرُ» في الإيديولوجيا الصهيونيّة موقعَ «اليهوديّ القذر» في الإيديولوجيا اللاساميّة الغربيّة، ويستعيد الجنديُّ الصهيونيّ (وهو يَقتل الفلسطينيين) مهاراتِ «الجنديّ النازيّ» (وهو يطارد اليهودَ).

❖ ❖ ❖

اتكأ مَسْعد، مرةً أخرى، على مفهوم ميزان القوى، في الفصل الثامن، «الفلسطينيون والمحرقة اليهوديّة،» قائلاً إنّ الصهيونيّة عَيّنتْ ذاتَها وسيطًا وحيدًا لتفسير المحرقة، وجَعلتْ من قبولها في صيغتها الصهيونيّة رمزًا للانصياع إلى المشيئة الصهيونيّة (وهو ما مثّله أنور السادات).

لا يقوم الأمرُ، إذًا، في الاعتراف بالمحرقة أو إنكارها، بل في صوغ منظورٍ موضوعيّ لها، يغاير المنظورَ الصهيونيّ الذي لا يَعرف الموضوعيّة، بل يستثمر لاموضوعيّتَه في تبرير قيام إسرائيل ومطاردةِ الفلسطينيين وتدميرهم وتأثيم المتعاطفين مع قضيّتهم. بهذا المعنى تصبح اللغةُ مدخلاً إلى السياسة، وتغدو اللغةُ السياسيّةُ الصحيحةُ شأنًا وطنيّاً؛ ذلك أنّ مَنْ يعبث باللغة يعبث بالمصير الوطنيّ.

❖ ❖ ❖

أفرد مَسْعد جزءًا كبيرًا من كتابه لتفكيك الخطاب الفلسطينيّ على المستوى السياسيّ المباشر، وعلى مستوى المثقفين الذين مَنحتْهم اتفاقيّةُ أوسلو بضاعةً لغويّةً جديدة. فهو على المستوى الأول يَنقد ذكوريّةَ الخطاب السياسيّ الفلسطينيّ، وانصياعَ القيادة الرمزيَّ إلى اللغة الرسميّة الإسرائيليّة، وصولاً إلى القول بتصفية القضيّة الفلسطينيّة. أما على مستوى المثقفين، فيتحدث مَسْعد عن مثقفين ليبراليين «متأخّرين» منحهم سقوطُ الاتحاد السوفييتيّ كفّارةً، وأمدّتهم اتفاقيّةُ أوسلو بتجارة؛ ويتحدّث عن «ذواتٍ بيضاء» تنحاز إلى ما يُعجب «الخطابَ الأبيض» ويُرضيه، وعن مثقفين مقاولين انشغلوا بمشاريع «الاستيراد والتصدير» في زمن «السلطة الفلسطينيّة»: يصدّرون «لغةً معتدلةً» تلبّي إرادةَ «المانحين،» ويستوردون «نصائحَ ماديّةً» تضع المثقفين خارج مجتمعهم وقضيّتهم.

ومع أنّ ما يقول به د. مَسْعد متّسق، فإنه يشكو من أمرين: ١) اعتبار اتفاقيّة أوسلو مدخلاً إلى تقييم السياسة والثقافة

الفلسطينيتيْن، و٢) النظر المجزوء إلى مآل الشعب الفلسطينيّ أو هزيمته. فعلى المستوى السياسيّ لم يَعرف العاملون في الشأن السياسيّ الفلسطينيّ، منذ البداية، أيّ ما **قبل** أوسلو بوقت طويل، سياسةً واضحةً صارمةَ القيود والشروط، بقدْر ما عرفوا ارتجالاً سياسيّاً أقربَ إلى العادة، أو عاداتٍ «سياسيّةً» أقربَ إلى الارتجال. لم تكن السياسةُ في اتفاق أوسلو إلاّ امتدادًا لسياسةٍ سبقتْه. وكذلك حالُ مثقفي السلطة أو المثقفين المتسلّطين، الذين وَحّدوا، منذ زمن، بين الموالاة والمصلحة، وبين رجم النقد والطمأنينة الذاتيّة. فالمثقف المقاول، الذي جاءت به السلطةُ، تلقّى تدريبَه في «مكاتب» إداريّةٍ بيروقراطيّةٍ **سبقتْ** مجيءَ السلطة بعقود. إنّ تحليلَ وضع المثقف الفلسطينيّ ينبغي أن يحيلَ على موضوع السلطة قبل أوسلو وبعدها، وعلى مجتمعٍ مشتّتٍ لم يَعرفْ سلطةً وطنيّةً خاصّةً به. وهو يحيل، في الحالين، على إخفاق المشروع السياسيّ الوطنيّ، الذي أعاد إنتاجَ الفروق والامتيازات والمراتب.

ولعلّ الإخفاقُ بعد زمن السلطة يتجلّى في مآل الثقافة الفلسطينيّة، التي أَلحقتْ بها الجمعيّاتُ اللاحكوميّةُ التي تحضّ على «السلام» هزيمةً كاسحةً، منجزةً ما عجز الاحتلالُ الصهيونيُّ عن إنجازه منذ بدايته. ذلك أنّ دورَ هذه الجمعيّات هو تحييدُ نخبةٍ مثقفةٍ هشّةِ الأخلاق والوطنيّة، تستعيد في ممارساتها دورًا بائسًا عنوانُه: أولويّةُ المصلحة الخاصّة على المصلحة الوطنيّة العامّة، وأولويّةُ إنقاذ النفوس الفارغة على مصلحة شعبٍ منهكٍ يسير إلى الغرق.

❖ ❖ ❖

انتقد مَسْعد السلطةَ الفلسطينيّةَ حتى حدود التنديد. لكنّ نقده كان سيزداد استقامةً وصلابةً بربطٍ أشدَّ إحكامًا بين التداعي السياسيّ الفلسطينيّ و**انهيارِ العالم العربيّ**. كان المؤرّخُ الفلسطينيّ محمد عزّة دروزه يقول قبل ثمانين سنةً وأكثر إننا «لن نفكّ خيطًا قبل أن نأخذَ برأي الإخوة العرب!» وكان بإمكان مَسْعد أن يتوقّف، ولو قليلاً، أمام الإستراتيجيّات المختلفة التي قَصدتْ إلى إضعاف الفلسطينيين وإرهاقِهم وتفريقهم قبل اتفاق أوسلو المأسويّ... وبعده.

❖ ❖ ❖

تبقى بين سطور الكتاب جملٌ «ما بعد حداثيّة» متفرّقة. منها ما يَعتبر «التنويرَ» مدخلاً إلى الاستعمار، و«الحداثة» سببًا للتبعيّة، و«التطوّرَ» طريقًا إلى الخضوع... ولعلّ هذا التصوّرَ هو الذي قاد المؤلّفَ إلى أن يتناسى أنّ «الحداثة العربيّة» على علاّتها هُزمتْ عام ١٩٦٧، وأنّ كلّ مَنْ تلاها من ليبراليين وسلفيين أثرٌ لهذه الهزيمة وترجمةٌ ماديّةٌ لها. والمنسيُّ هنا أنّ بعضَ الإيديولوجيّات التي تَرْجم الحداثَة والنهضةَ هي وجهٌ آخر للإيديولوجيّات السلطويّة، وأنّ هدفَ كثير من الوعظ الدينيّ المسيطر اليوم ـ كما لا يخفى على مَسْعد ـ هو هزيمةُ ما تبقّى من فلول قوى التحرّر العربيّ لا قتالُ القوى الإمبرياليّة التي هَزمت المشروعَ الوطنيَّ منذ أربعين عامًا (أنظر الصفحات ٢١٨، ٢٤٥ ـ ٢٤٦، ٢٦٠).

❖ ❖ ❖

واعتمادًا على مقولاتٍ ما بعد الحداثة، عالج د. مسعد «ذكوريّةَ» اللغة العرفاتيّة. غير أنّ اللغة العربيّة هي، **في ذاتها**، لغةٌ ذكوريّة، على ما أَظهر الطاهر لبيب في دراسةٍ ممتازةٍ عن الشعر الغزليّ. كما أنّ الدينَ الإسلاميّ نفسَه قال إنّ «الرجال قوّامون على النساء.» والذكوريّة العرفاتيّة، أقائمةً كانت أمْ غائبة، تعبِّر عن تزيّدٍ في النقد لا لزومَ له. وكان من الأفضل تأمّلُ الأسباب التي أفضت إلى تهميش دور المرأة تهميشًا لا يليق بحركة تحرّرٍ وطنيّ. ولعلّ هذا التزيّدَ هو الذي أَقنع مسعدًا بمقارنةٍ بين مقدّمة **الميثاق الوطنيّ الفلسطينيّ** و«الخطاب الصهيونيّ المبكّر،» في حين أنّ لغة **الميثاق** (في رأيي) هي من لغة «القوميين العرب،» وأنّ لغة الخطاب الصهيونيّ هي من خطابٍ قوميٍّ أوروبيٍّ رومانسيّ. وإذا كان للذكورة دورُها الأساسُ في بناء القوميّات، فلماذا برهن «التاريخان» الأوروبيُّ والصهيونيُّ عن «ذكورةٍ ناجعة» وبرهن «العربُ» عن شيءٍ مغايرٍ كليّاً؟

❖ ❖ ❖

لا يَحْجب النقدُ السابقُ قيمةَ كتاب د. جوزيف مَسْعد، الذي قَدّم تحليلاً نبيهًا للخطاب الصهيونيّ لا نَعْثرُ على مثيلٍ له إلا مصادفةً، مؤكّدًا صوتًا فلسطينيّاً يواجه التزويرَ الصهيونيّ من دون مساومة، أكان ذلك في الولايات المتحدة أمْ خارجها.

عمّان